

التعليم زمن الستيوارت

Education during the Stuart Era

الباحث/ م.م. عبدالمحسن عبدالامير إبراهيم العكله: مدرس مساعد في مركز الدراسات الاستراتيجية،
جامعة كربلاء، العراق.

*Mr. Abdulmohsen Abdulameer Ibrahim Al-Aklah: Assistant teacher at the
Center for Strategic Studies, University of Karbala, Iraq.*

Email: abdulmohsin.a@uokerbala.edu.iq

DOI <https://doi.org/10.56989/benkj.v6i7.1967>

الملخص:

تتناول هذه الدراسة تحليلاً شاملاً للتعليم في إنجلترا خلال فترة حكم أسرة ستوارت (1603-1714)، وهي فترة شهدت تحولات سياسية ودينية عميقة أثرت بشكل كبير في شكل النظام التعليمي. يسلط البحث الضوء على العلاقة بين التعليم والسلطة السياسية والدينية، وتأثير الثورة البيوريتانية، والعهد الجمهوري، وعودة الملكية، ثم الثورة المجيدة (1688). كما يستعرض أوضاع التعليم الديني، والمدارس اللاتينية، ودور الجامعات في تطوير التعليم الإنجليزي، ومكانة المرأة، والتعليم الأهلي ودوره في إثراء الوعي الفكري. اعتمد البحث على تحليل الوثائق التاريخية والسياق الاجتماعي والفكري، مع تقديم مقارنات كمية ونوعية عبر جداول توضيحية. يُعد التعليم في عهد ستوارت نموذجاً تاريخياً معقداً لتلقي المعرفة بالسلطة، وتداخل الدين بالسياسة في رسم ملامح الوعي الاجتماعي والثقافي في إنجلترا الحديثة المبكرة. وقد كشف البحث أن التعليم لم يكن مجرد أداة لنقل المعرفة، بل كان في صلب المشروع السياسي والديني للدولة، وجزءاً من آلية إنتاج الطاعة، وتشكيل الهوية، وإعادة إنتاج النظام الاجتماعي القائم. خلصت الدراسة إلى أن التعليم في عصر آل ستوارت كان مرآة عاكسة للصراعات الأيديولوجية في المجتمع الإنجليزي، ووسيلة لإنتاج النظام القائم، لكنه حمل في داخله بذور التغيير التي نمت لاحقاً في عصر الإصلاحات والديمقراطية. لقد كان تعليمياً يُدار من أعلى، لكنه أيقظ طموحات فكرية وثقافية في الأسفل، غيرت لاحقاً وجه إنجلترا الحديثة.

الكلمات المفتاحية: تعليم، أسرة ستوارت، إنجلترا، السلطة السياسية، الصراعات الدينية، المدارس اللاتينية، الجامعات، التعليم الأهلي، الوعي الفكري، الثورة المجيدة.

Abstract:

This study presents a comprehensive analysis of education in England during the Stuart dynasty (1603–1714), a period marked by profound political and religious transformations that significantly shaped the educational system. The research highlights the relationship between education and political and religious authority, the impact of the Puritan Revolution, the Republican Commonwealth, the Restoration of the monarchy, and finally the Glorious Revolution of 1688. It also examines the state of religious education, Latin schools, the role of universities in the development of English education, the status of women, and private education and its contribution to intellectual awareness. The study is based on the analysis of historical documents and the social and intellectual context, supported by quantitative and qualitative comparisons through illustrative tables. Education in the Stuart era represents one of the most complex historical models of the intersection of knowledge and power, and the intertwining of religion and politics in shaping the social and cultural consciousness of early modern England. The research reveals that education was not merely a tool for transmitting knowledge, but lay at the heart of the political and religious project of the state, and was part of the mechanism for producing obedience, shaping identity, and reproducing the existing social order. The study concludes that education in the Stuart era was a mirror reflecting the ideological struggles within English society and a means of reproducing the established order, yet it carried within it the seeds of change that would later grow in the age of reforms and democracy. It was an education managed from above, but it awakened intellectual and cultural ambitions from below, which later transformed the face of modern England.

Keywords: Education, Stuart Dynasty, England, Political Authority, Religious Conflicts, Latin Schools, Universities, Private Education, Intellectual Awareness, Glorious Revolution.

المقدمة:

شهدت فترة حكم أسرة ستيوارت في إنجلترا (1603-1714) تحولات سياسية ودينية عميقة، انعكست مباشرة على واقع التعليم وبنيته. فمنذ عهد جيمس الأول، مروراً بالحرب الأهلية وحكم كرومويل، وصولاً إلى الثورة المجيدة، ارتبط التعليم ارتباطاً وثيقاً بالصراع بين الكنيسة الأنجليكانية والطوائف البروتستانتية الأخرى. وتكمن الإشكالية في: كيف أثرت التقلبات السياسية والدينية في عهد الستيوارت على مؤسسات التعليم وأهدافه ومناهجه؟ إذ تُعد مرحلة حكم أسرة ستيوارت من أبرز الفترات التي شهدت تطورات في بنية الدولة الإنجليزية، خاصةً على صعيد الفكر السياسي والديني، ما انعكس بدوره على النظام التعليمي بشكل مباشر. وقد أسهم هذا السياق في ظهور جدليات حادة بين الدولة والكنيسة، وبين التيارات البروتستانتية المختلفة، مما جعل التعليم ساحةً لصراع الأفكار ومجالاً لصياغة الهوية الثقافية. تُبين دراسة التعليم في هذا العصر كيف يمكن للمؤسسات التعليمية أن تتأثر بالتحولات السياسية واللاهوتية، بل وتساهم في صنعها.

مشكلة الدراسة:

رغم غنى الحقبة الستيوارتية بالأحداث، إلا أن التعليم في تلك الفترة لم يحظَ بالدراسة الكافية، خاصةً من زاوية تحليله في ضوء الصراعات الفكرية والدينية. تتمثل الإشكالية الأساسية في هذا البحث في الإجابة عن التساؤل الآتي:

كيف شكّل السياق السياسي والديني في عهد آل ستيوارت نظام التعليم في إنجلترا؟ وما أبرز ملامح هذا التشكيل؟

تندرج تحت السؤال الرئيسي مجموعة تساؤلات فرعية على النحو الآتي:

1. ما أبرز ملامح النظام التعليمي في عهد آل ستيوارت؟
2. ما الدور الذي اضطلعت به الكنيسة في تشكيل وصياغة التعليم خلال هذه الفترة؟
3. كيف أثرت الأحداث السياسية الكبرى - وعلى رأسها الثورة البيوريتانية والثورة المجيدة - في مسار التعليم وتوجهاته؟
4. ما موقع المرأة من النظام التعليمي في هذه المرحلة، وما حدود مشاركتها فيه؟
5. ما أبرز مظاهر التغيّر التي شهدتها التعليم الجامعي في عهد آل ستيوارت؟

فرضية البحث:

تنطلق فرضية البحث من أن التعليم في العصر الستيوارتي لم يكن مجرد أداة للمعرفة، بل كان وسيلة لضبط الفكر والتحكم في الاتجاهات الدينية والسياسية، كما أن النخب الحاكمة وظفته لتكريس سلطتها أو لمقاومتها.

منهج البحث:

يعتمد هذا البحث على المنهج التاريخي التحليلي، من خلال استقراء النصوص والوثائق والكتابات التاريخية ذات الصلة، ثم تحليلها في سياقها الزمني للحقبة الستيوارتية. كما يُوظف البحث المنهج المقارن، بمقارنة التحولات التعليمية بين ما قبل عهد آل ستيوارت وما بعده، وكذلك بمقارنة تجارب التعليم داخل المناطق الإنجليزية المختلفة، مع التركيز على تأثير كل من: الكنيسة الأنجليكانية، والبيوريتانية، والتيارات الفكرية الأخرى.

المبحث الأول: الإطار التاريخي والاجتماعي للتعليم الستيوارتي

المطلب الأول: السياق السياسي والديني في عهد آل ستيوارت وتأثيره على التعليم

شكّل وصول جيمس الأول إلى عرش إنجلترا عام 1603 بداية لحقبة جديدة في تاريخ المملكة، إذ مثل الاستمرار الملكي بعد العهد الإليزابيثي، لكنه جاء أيضًا محملاً بأفكار مختلفة حول السلطة المطلقة والدين، مما كان له أثر مباشر على بنية المجتمع الإنجليزي ونظام التعليم فيه. شهدت هذه المرحلة احتدامًا بين السلطة الملكية والبرلمان، وتصاعدًا في الصراع بين الأنجليكانية والبيوريتانية، انعكس على الخطاب التربوي والمناهج وطرق التدريس، بل وحتى على بنية المؤسسات التعليمية نفسها⁽¹⁾.

فقد سعى جيمس الأول ثم ابنه تشارلز الأول إلى فرض تصورات دينية موحدة، تُعلي من سلطة الكنيسة الأنجليكانية، وتُضعف التيارات البيوريتانية، مما أدى إلى تسييس التعليم، وربط قبوله أو تمويله بولاء الأفراد للنظام الملكي والكنيسة الرسمية. وفي هذا السياق، أصبحت الجامعات مثل أوكسفورد وكامبريدج ساحات لصراع أيديولوجي لا يقل عن ساحات البرلمان، حيث تم تهميش أساتذة بيوريتانيين، وفُرضت شروط عقائدية لقبول الطلبة⁽²⁾.

(1) Christopher Hill, *The World Turned Upside Down: Radical Ideas During the English Revolution*, London: Penguin Books, 1972, p.145

(2) Jonathan I. Israel, *Radical Enlightenment: Philosophy and the Making of Modernity 1650–1750*, Oxford University Press, 2001, p. 58.

وفي منتصف القرن السابع عشر، مع اندلاع الحرب الأهلية الإنجليزية (1642-1651) وسقوط الملكية مؤقتًا، دخل التعليم مرحلة جديدة. فقد ازدهرت المدارس المستقلة التي أسسها البيوريتان، وظهر تيار تعليمي أكثر تحررًا، يركز على تعليم الكتاب المقدس، ويقلل من سلطة الكنيسة الرسمية. كما ارتفعت نسب التعليم الأولي في بعض المدن الكبرى بفعل هذه السياسات، وبدأ التفكير في تعليم الفتيات ضمن أسر البيوريتان، وإن بقي محدودًا. أما بعد عودة الملكية سنة 1660، فقد سعى الملك تشارلز الثاني لإعادة السيطرة على التعليم، فشهدت المؤسسات التعليمية حملة تطهير واسعة، عزلت الأساتذة المعارضين وأعدت السيطرة الأنجليكانية، مما خلق بيئة تعليمية تتسم بالمراقبة والرقابة على الفكر والنصوص.

وهكذا ظل التعليم خلال حكم آل ستيوارت مرآة للتقلبات السياسية والدينية، إذ لم يكن محايدًا، بل خاضعًا لسلطة الدولة والكنيسة، ومحلاً لصراع دائم بين الفرقاء السياسيين والدينيين.

جدول توضيحي: تغيير المناهج التعليمية في عهد آل ستيوارت حسب الفترة الزمنية⁽¹⁾

الفترة	نوع المنهج	التوجه الديني	مميزات الفترة
(جيمس الأول) 1603-1625	كلاسيكية (لاتينية)	أنجليكانية	تركيز على الطاعة للسلطة والكنيسة
(تشارلز الأول) 1625-1649	دينية كلاسيكية	أنجليكانية متشددة	قمع التيارات الأخرى
(الحكم الجمهوري) 1660-1649	دينية حرة	بيوريتانية	تعليم الفقراء وانتشار المدارس المستقلة

المطلب الثاني: التحولات الاجتماعية والثقافية وكيف أثرت على التعليم

شهدت الفترة الستيوارتية تغيرات اجتماعية واقتصادية عميقة أثرت في طبيعة التعليم وموقعه داخل المجتمع. ومع تصاعد حركة التمدن والهجرة الداخلية من الريف إلى المدن، بدأت تظهر طبقات اجتماعية جديدة تطالب بحقها في التعليم، مما وسّع القاعدة المجتمعية للمؤسسات التعليمية. في المقابل، لم يكن التعليم متاحًا بصورة عادلة؛ إذ بقي حكرًا إلى حد بعيد على الذكور المنتمين إلى الطبقة الأرستقراطية والبرجوازية الناشئة، بينما كانت الفتيات والطبقات الدنيا محرومة من التعليم الرسمي باستثناء بعض المبادرات الدينية أو الخيرية⁽²⁾.

(1) Robert H. Wilson, Church and Education in Early Modern England, Oxford: Blackwell, 1990, p 13.

(2) Richard Aldrich, Education for the Nation: A Documentary History of Education in England, London: Routledge, 1996.

ساهمت التحولات الاقتصادية، خاصة مع نمو التجارة وظهور شركات كبرى كشركة الهند الشرقية، في تعزيز أهمية المعرفة، ليس فقط في الدين واللغة الكلاسيكية، بل في الحساب والقراءة والكتابة واللغات الحديثة، الأمر الذي دفع فئات من التجار وأصحاب المصانع إلى دعم إنشاء مدارس أهلية خاصة. وهذا ما شكّل بداية تحول عميق في فهم التعليم كأداة للتنمية الاجتماعية، وليس مجرد وسيلة لخدمة الكنيسة أو الدولة⁽¹⁾.

التحولات الثقافية والفكرية، خاصة مع بزوغ عصر التنوير في نهايات القرن السابع عشر، انعكست على البرامج التعليمية، حيث بدأت تظهر دعوات للتعليم العقلاني الذي يركز على المنطق والتجريب، بدلاً من التعليم العقائدي القائم على الحفظ والتلقين. ومع أن هذه الأفكار لم تكن سائدة بشكل واسع، إلا أنها تركت أثرًا في بعض المدارس الخاصة والنخب الفكرية، ومهدت الطريق لإصلاحات لاحقة في القرن الثامن عشر.

من جانب آخر، لعبت الطباعة دورًا كبيرًا في نشر التعليم. فقد انتشرت الكتب المدرسية المطبوعة، وتوفرت نسخ من الكتاب المقدس وكتب القواعد اللاتينية بأسعار أرخص، مما سهل الوصول إلى المواد التعليمية. كما ساهمت هذه الطباعة في نشر الأفكار المعارضة للنظام الملكي أو الكنيسة الرسمية، مما أدى إلى مزيد من الرقابة على المواد المطبوعة التعليمية من قبل السلطة⁽²⁾.

في هذا السياق، لا يمكن إغفال دور الجمعيات الخيرية والمؤسسات الدينية غير الرسمية التي أنشأت مدارس للفقراء والأيتام، وخاصة في المدن الكبرى مثل لندن وبريستول. ورغم أن هذه المدارس كانت تهدف بالدرجة الأولى إلى نشر الأخلاق المسيحية، إلا أنها أسهمت في رفع نسب المتعلمين بين الطبقات الدنيا، مما شكّل خطوة مهمة نحو التعليم الشامل لاحقًا.

إن فهم العلاقة بين التحولات الاجتماعية والتعليم يتطلب تحليلًا أعمق لدور الطبقات الصاعدة، خاصة البرجوازية، في دعم التعليم كوسيلة للتقدم الاجتماعي. فقد أدركت هذه الطبقة أن السيطرة على وسائل الإنتاج وحدها لا تكفي، بل يجب أن تترافق مع سيطرة على وسائل المعرفة. لذا لم يكن غريبًا أن نرى في النصف الثاني من القرن السابع عشر تزايدًا في عدد المدارس الخاصة، خاصة في المدن، إذ وفرت هذه المدارس تعليمًا علمانيًا نسبيًا، وركزت على المهارات الحسابية واللغوية التي

(1) Margaret C. Jacob, The Cultural Meaning of the Scientific Revolution, Yale University Press, 1997, p.23

(2) Richard G. Boyer, The Oxford History of the British Empire, Vol I: The Origins of Empire, Oxford University Press, 1998, p.55

تتطلبها التجارة والكتابة القانونية⁽¹⁾. كما أن هذه المدارس خرجت عن هيمنة الكنيسة التقليدية، وشهدت ظهور معلمين متحررين من القيود اللاهوتية، وهو ما مثل تغييراً مهماً في بنية السلطة التعليمية.

يمكن اعتبار التعليم خلال هذه المدة أداة لصراع طبقي ناعم، إذ استخدمته الطبقات الوسطى لتأكيد مكانتها الاقتصادية والثقافية، وهو ما عبّر عنه عدد من المفكرين المعاصرين أمثال جون لوك، الذي رأى في التعليم وسيلة لصناعة الإنسان العاقل القادر على المشاركة في الحياة العامة⁽²⁾.

ومع تزايد النقاش حول دور المرأة في المجتمع، بدأت تظهر أصوات تطالب بتعليم الفتيات، خاصة من الطبقات البرجوازية. ورغم أن التعليم بقي مقصوراً على الأمور الدينية إلى حد بعيد، إلا أن تلك الدعوات شكلت الأساس لحركات لاحقة في القرن التالي. ففي بعض المناطق مثل لندن، ظهرت مدارس خاصة للفتيات تُدرّس مبادئ القراءة والكتابة والخياطة، ضمن بيئة دينية محافظة. كما ارتبطت التحولات الاجتماعية بنمو مفهوم "المواطنة الصالحة"، الذي رأى في التعليم وسيلة لتشكيل أفراد مطيعين للنظام، مما دفع السلطة إلى التحكم في محتوى التعليم وتوجيهه نحو دعم الولاء للملك والكنيسة الرسمية⁽³⁾.

انعكست هذه التحولات الاجتماعية أيضاً على طبيعة المعلمين، إذ بدأ المعلم يُنظر إليه كشخصية مهنية وليس فقط كناقل للمعرفة الدينية. وقد تطور دور المعلم خصوصاً في المدارس الخاصة، إذ أصبح يقدم مهارات متنوعة من المحاسبة إلى القانون، وتزايدت أهمية خبرته التربوية على حساب خلفيته الدينية، وهو ما مثل انفصلاً تدريجياً عن النموذج الكنسي القديم للمعلم⁽⁴⁾.

ومع أن السلطة الملكية سعت إلى تنظيم هذا المجال عبر فرض رخصة التدريس وربطها بالمؤسسة الكنسية، إلا أن عددًا كبيراً من المدارس الأهلية كان يعمل خارج هذا الإطار الرسمي، مما أدى إلى تنوع في نوعية التعليم وجودته. كما أن بعض هذه المدارس استخدمت مناهج مستوردة من أوروبا، خاصة من هولندا وفرنسا، وهو ما ساعد في إدخال مفاهيم جديدة في التعليم. في الأرياف، بقي التعليم أقل تطوراً، وتسيطر عليه الكنيسة المحلية، وكان يقتصر في كثير من الأحيان على تعليم القراءة من الإنجيل. لكن في بعض المناطق التي شهدت استقراراً اقتصادياً، بدأت تظهر مبادرات

(1) David Houston, *Class, Education and Social Change in England, 1600–1800*, Cambridge University Press, 1992, p.21

(2) Richard Aldrich, *Op. Cit*, p.10.

(3) Christopher Hill, *Op. Cit*, p.34.

(4) John Milton, *Of Education*, in *Prose Works*, edited by Ernest Sirluck, Yale University Press, 1953, p.45

فردية من ملاك الأراضي أو المساوسة لإنشاء مدارس بدائية، وهذا ما أدى إلى تفاوت كبير بين المدن والريف في مستوى التعليم⁽¹⁾.

بالرغم من كل هذه التحولات، فإن البنية التعليمية بقيت رهينة لنظام اجتماعي هرمي، إذ كان التعليم وسيلة لخلق طبقة نخبوية تتماشى مع توجهات الدولة أو تُمثّل نخبة المعارضة. كما بقي التعليم الجامعي حكراً على أبناء النبلاء والطبقة الثرية، وكان قبوله يتطلب التزاماً دينياً صارماً. ومن الملفت للنظر أن هذه الجامعات لم تُحدث إصلاحاً جوهرياً في المناهج خلال الحقبة الستوارتية، بل بقيت تدرّس المنطق واللاهوت واللغة اللاتينية بأسلوب تقليدي. لكن الاستثناء كان في ظهور بعض المفكرين مثل فرانسيس بيكون، الذين طالبوا بإصلاح التعليم الجامعي، وإدخال العلوم التجريبية والفلسفية الحديثة ضمن المناهج. وقد أسهم هذا الاتجاه، وإن بشكل محدود، في تغيير نظرة بعض النخب إلى التعليم كوسيلة للابتكار، لا فقط للحفاظ⁽²⁾.

المطلب الثالث: التحولات الاجتماعية والثقافية خلال فترة حكم آل ستوارت

شهدت إنجلترا خلال فترة حكم آل ستوارت (1603-1714) تحولات اجتماعية وثقافية واقتصادية كبرى، انعكست بوضوح على شكل ومضمون التعليم. فقد كان المجتمع الإنجليزي في بداية القرن السابع عشر قائماً على النظام الإقطاعي والتراتبية الطبقية الصارمة، إلا أن هذه البنية بدأت تتغير تدريجياً مع اتساع التجارة ونمو المدن، وظهور طبقات برجوازية جديدة سعت إلى اكتساب المعرفة كوسيلة للتقدم الاجتماعي⁽³⁾.

برز هذا التحول بشكل خاص في المدن الكبرى مثل لندن وبريستول، إذ ازدادت الحاجة إلى التعليم المهني واللغات الحديثة والحساب، نتيجة لازدهار التجارة وارتباطها بالأسواق الخارجية. ومع هذا التحول، برزت مدارس جديدة لا تُشرف عليها الكنيسة، بل أسسها تجار ومواطنون أثرياء، وكانت تهدف لتعليم أولادهم المهارات العملية الضرورية، مثل الكتابة الخاصة بالتجارة، والمحاسبة، واللغات الأجنبية، إلى جانب اللاهوت في المقابل، بقي التعليم الديني الكنسي هو الغالب في المناطق الريفية، إذ كانت المدارس تحت إشراف المساوسة المحليين، وتركز على تعليم الكتاب المقدس واللغة اللاتينية. ويُلاحظ أن هذا النوع من التعليم، رغم بساطته، حافظ على استمراريته بسبب دعم الكنيسة الأنجليكانية⁽⁴⁾.

¹ David Houston, Op. Cit, p.15.

² Jonathan I. Israel, Op. Cit, p.37.

³ Margaret C. Jacob, Op. Cit, p.25.

⁴ Robert H. Wilson, Op. Cit, p.19.

من جانب آخر، أدت الطباعة إلى إحداث نقلة نوعية في إمكانية الوصول إلى المعرفة. فقد انتشرت الكتب التعليمية المطبوعة بشكل كبير منذ نهاية القرن السادس عشر، وازدادت في القرن السابع عشر، وظهرت مطابع تُصدر كتبًا مدرسية بأسعار معقولة، خاصة تلك التي تدرّس القواعد اللغوية والقراءة، مما أدى إلى تحسين القدرة التعليمية لدى طبقات لم تكن تصلها المعرفة من قبل كما أن تحولات الثقافة العامة أثّرت على فهم المجتمع للتعليم، فبدأ يُنظر إليه بوصفه أداة تشكيل ثقافي وأخلاقي، وليس فقط وسيلة دينية. وقد كانت هناك محاولات واضحة لتوظيف التعليم في ضبط السلوك المجتمعي، من خلال تضمين مفاهيم الطاعة، والولاء، والأخلاق الإنجيلية في المناهج الدراسية⁽¹⁾.

إن التغير في توزيع السكان، مع تزايد الهجرة من الريف إلى المدن، قد ساهم في توسّع الطلب على التعليم الرسمي وقد وجدت الأسر الحضرية المتوسطة والفقيرة في المدارس الخيرية والتعليم الأساسي وسيلة لتحسين وضعها الاقتصادي مستقبلاً. وعلى الرغم من أن هذه المدارس لم تكن متقدمة من الناحية العلمية، فإنها وفرت أساسًا تعليميًا ضروريًا للقراءة والكتابة والحساب، وهو ما شكّل نقلة في وعي الطبقات الدنيا بأهمية التعليم ومن أبرز المظاهر الاجتماعية في تلك الفترة، هو ظهور "المدارس التي تموّل من تبرعات الأثرياء أو من الكنائس، وكانت تقدم تعليمًا مجانيًا أو شبه مجاني، وغالبًا ما كانت تهدف إلى تهذيب الطبقات الفقيرة وتلقينها القيم الدينية والاجتماعية. وكانت هذه المدارس تعتبر وسيلة لنشر النظام والانضباط بين صفوف الأطفال الذين كان يُخشى انحرافهم نحو الجريمة أو التمرد⁽²⁾.

أما على صعيد المرأة، فقد كانت هناك بداية خجولة لمحاولات تعليم الفتيات، خصوصًا من الطبقة المتوسطة. حيث ظهرت في بعض المدن مدارس للبنات، تدرّس القراءة والخياطة وأصول الأخلاق الدينية، لكنها لم تكن تعدّهن للتعليم العالي أو لأي دور عام. فكان التعليم النسوي لا يزال محصورًا في الأدوار المنزلية، ضمن الإطار الاجتماعي المحافظ. ومع ذلك، فإن هذه المبادرات كانت البداية الأولى لصعود قضية تعليم المرأة، التي ستشهد تطورًا في القرن التالي⁽³⁾. كما ساهمت المؤسسات التجارية الكبرى، مثل شركة الهند الشرقية، في دعم هذا النمط من التعليم، عبر تشجيع تعليم الموظفين على فنون المراسلة التجارية وفهم الأسواق وهذا يُظهر بوضوح أن التحول الاقتصادي في إنجلترا لم يترك التعليم دون تأثير، بل أعاد تشكيله ليخدم الحاجات العملية للطبقات الصاعدة ورغم هذه التطورات، فقد بقيت الجامعات مثل أكسفورد وكامبريدج بعيدة عن هذه التحولات، إذ ظلت جامعات محافظة، تدرّس العلوم التقليدية من منطق ولاهوت وفلسفة، ضمن إطار ديني صارم. وقد

¹ John Milton, Op. Cit, p.27.

² Richard Aldrich, Op. Cit, p.27.

³ Christopher Hill, Op. Cit, p.39.

انتقد بعض المفكرين هذا الجمود، وعلى رأسهم فرانسيس بيكون، الذي دعا إلى إصلاح التعليم الجامعي وإدخال العلوم التجريبية والمنهج الاستقرائي في التدريس⁽¹⁾

موظفين ومحاسبين ومهنيين، وهذا ما عبّر عن بداية تمايز اجتماعي معرفي خطير كانت هناك أصوات جديدة بدأت تظهر داخل التيار الفكري الإنجليزي، تدعو إلى رؤية مختلفة للتعليم، ترى فيه وسيلة لتحقيق الحرية الفردية، وتحفيز العقل، وتوسيع أفق التفكير. وقد برز من بين هؤلاء المفكرين جون ميلتون، الذي كتب حول ضرورة تعليم الإنسان حر التفكير والضمير، بدلاً من أن يكون عبداً للسلطة أو الكنيسة إن ما شهدته إنجلترا خلال هذه الحقبة من صراع بين التعليم المحافظ والتعليم العقلاني، يعكس عمق التوتر بين القوى التقليدية والقوى التنويرية الصاعدة، وهو توتر سيستمر تأثيره في القرون اللاحقة. ومع نهاية عهد آل ستيوارت، كانت بنية التعليم قد تغيرت جزئياً، وإن لم تتحرر بعد من سلطة الدولة والكنيسة⁽²⁾

وبالتالي، يمكن القول إن التحولات الاجتماعية والثقافية خلال العصر الستيوارتي أعادت تعريف التعليم، من مؤسسة نخبوية دينية إلى أداة للتقدم المهني والاجتماعي، رغم بقاء القيود السياسية والدينية على مضمونه. وقد شكّل هذا الواقع تمهيداً للإصلاحات الكبرى التي ستحدث في القرن الثامن عشر، مع صعود التيارات التنويرية والليبرالية.

المطلب الثالث: التحولات الاجتماعية والثقافية خلال فترة حكم آل ستيوارت

شكّلت العلاقة بين الدين والتعليم في العصر الستيوارتي أحد المحاور الرئيسية التي أثّرت بعمق على مضمون التعليم ومؤسساته وهيكله. فمنذ بداية عهد جيمس الأول (1603-1625)، وُضعت أسس قوية لربط التعليم بالمذهب الرسمي للدولة، وهو المذهب الأنجليكاني. وقد اعتُبر التعليم وسيلة لترسيخ العقيدة الأنجليكانية ومجابهة التيارات الدينية المعارضة، خاصة البيوريتانية والكاثوليكية. وكانت المدارس والمؤسسات التعليمية، لا سيما تلك الممولة من الدولة أو الكنيسة، مطالبة بإعلان الولاء للملك، وكذلك بالامتثال للعقيدة الأنجليكانية. وهذا ما حصر مهنة التدريس داخل هذه المؤسسات في يد رجال دين أنجليكان، وأقصى كل من يتبنى معتقدات دينية مغايرة، حتى وإن امتلك الكفاءة التعليمية. كما فرضت قوانين تمنع غير الأنجليكان من التعليم أو من الالتحاق بالجامعات، خاصة أوكسفورد وكامبريدج، مما أفضى إلى احتكار تعليمي ديني واضح⁽³⁾.

¹ Ellen Jordan, Education and the Social Order in Modern England, Routledge, 1995, p.47

² Richard G. Boyer, Op. Cit, p.21.

³ Francis Bacon, The Advancement of Learning, Oxford University Press, original edition, 1925, p.24.

وقد تعزز هذا الاحتكار بعد تولي تشارلز الأول الحكم سنة 1625، إذ تصاعدت وتيرة القمع الديني، واعتُبر التعليم وسيلة لمحاربة "الهرطقة"، ومنع انتشار الكاثوليكية أو البيوريتانية. فالمعلم الذي يُشتبه في تعاطفه مع تلك المذاهب كان يُفصل، وأحياناً يُحاكم بتهمة تهديد الأمن العقائدي للمملكة. لكن هذا الوضع تغيرَ نسبياً خلال المرحلة الجمهورية بعد الثورة البيوريتانية، وتم تقليص نفوذ الكنيسة الأنجليكانية، وازدهرت المدارس التابعة للجماعات البيوريتانية⁽¹⁾.

أثناء فترة الحكم البيوريتاني (1649-1660)، تحولت المدارس إلى أدوات لإعادة صياغة المجتمع الإنجليزي على أسس دينية جديدة. فقد كان التعليم موجهاً لتكوين "المؤمن القارئ"، الذي يطالع الإنجيل بنفسه دون الحاجة إلى وساطة كنسية. ولهذا السبب، ركز التعليم في هذه الفترة على تعليم القراءة والكتابة لكل فئات المجتمع، حتى النساء، وإن بدرجات متفاوتة. كما أنشئت مدارس مستقلة عن الكنيسة الأنجليكانية، تُعرف أحياناً باسم "مدارس المنشقين" أو "المدارس غير المطابقة"، وكان يديرها معلمون ذوو توجهات إصلاحية. واعتُبر هذا تحدياً مباشراً لسلطة الكنيسة الرسمية، وخصوصاً مع إدخال مناهج جديدة تُركّز على الأخلاق والسلوك، بدلاً من الطقوس والشعائر التقليدية⁽²⁾.

رغم ذلك، فإن هذه الانفراجة لم تدم طويلاً. فمع عودة الملكية سنة 1660، في عهد تشارلز الثاني، عاد النفوذ الأنجليكاني بقوة، وتم إغلاق العديد من المدارس غير المطابقة، وطُرد الأساتذة الذين لا يعتقدون العقيدة الرسمية. وقد سُنَّ قانون "الاتساق" سنة 1662، والذي ألزم المعلمين بإعلان الولاء للعقيدة الأنجليكانية، وإلا فسيُمنعون من التدريس. هذا التذبذب في حرية التعليم الديني أوجد حالة من الانقسام الحاد في المجتمع الإنجليزي، فبينما حافظت الكنيسة على سيطرتها داخل المؤسسات الرسمية، واصل البيوريتان والمستقلون بناء مدارسهم الخاصة. وقد أدى ذلك إلى نشوء منظومة تعليمية مزدوجة: واحدة خاضعة للسلطة، وأخرى تابعة لجماعات المعارضة، وكل منها تحمل رؤية دينية وأخلاقية مختلفة للتعليم⁽³⁾.

يُعدّ القرن السابع عشر في إنجلترا مثلاً نموذجياً على ارتباط التعليم بالتحكم العقائدي والسياسي، حيث وظّفت السلطة الدينية - سواء كانت أنجليكانية أو بيوريتانية - المدارس من أجل تكوين جيل خاضع لمرجعياتها. ولم يكن هدف التعليم إذاً نشر المعرفة لذاتها، بل توجيه السلوك الديني والاجتماعي للمجتمع. هذا التوجه انعكس حتى في الكتب التعليمية المنتشرة آنذاك، والتي كانت تحتوي على نصوص دينية موجهة، وأناشيد أخلاقية، وأمثلة مستوحاة من الكتاب المقدس، فضلاً عن تعليم الأطفال واجب الطاعة للوالدين والملك والقساوسة. كما كانت المدارس تُستخدم كمنصة لنشر

¹ Jonathan I. Israel, Op. Cit, p.47.

² Francis Bacon, Op. Cit, p.11.

³ David Houston, Op. Cit, p.19.

التعاليم ضد "المهرطقين"، وتخويف الأطفال من الكاثوليكية، التي كانت تُصوّر كعدو داخلي وخارجي⁽¹⁾.

من الجدير بالذكر أن الممارسات التعليمية في هذه الفترة لم تُنتج بيئة نقدية حقيقية، بل ركزت على الحفظ والانضباط والمراقبة. كما كانت العلاقة بين المعلم والطالب علاقة سلطوية صارمة، تستند إلى العقاب البدني والتقويم الأخلاقي، مما عزز فكرة التعليم كعملية تهذيب أكثر منه تطويراً عقلياً. بالمقابل، كان هناك بعض المدارس المعارضة التي بدأت تُدرّس نصوصاً فلسفية، مثل كتابات إيرازموس وبيكون⁽²⁾، وتُشجّع على طرح الأسئلة والتفكير. ورغم أن هذه المدارس كانت قليلة ومهددة دائماً بالإغلاق، فإنها شكّلت بذور الفكر الحر في إنجلترا، ومهدت لاحقاً لظهور المدارس التنويرية. ومع نهاية عهد آل ستيوارت، وخصوصاً بعد الثورة المجيدة سنة 1688، بدأت تظهر بوادر لتغيير حقيقي في العلاقة بين الدين والتعليم. فقد فرضت الثورة تسامحاً دينياً نسبياً، سمح بقدر من الحرية للمدارس غير الأنجليكانية، وقلّ من قدرة الدولة على احتكار التعليم بصورة مطلقة⁽³⁾.

وعلى الرغم من بقاء سيطرة الكنيسة الأنجليكانية على الجامعات والمدارس الكبرى، إلا أن عدد المدارس المستقلة تزايد، وتم تقنين وجودها في بعض القوانين، وهو ما أعطى فسحة للتعليم المتنوع، بما في ذلك التعليم المرتكز على التفكير العلمي أو القيم الأخلاقية العامة غير المنحازة. في هذه المرحلة أيضاً، بدأ يتراجع التعليم العقائدي الصارم، لتحل مكانه مناهج أكثر عملية، تجمع بين الدين والأدب والعلوم، مما يعكس التأثير المتصاعد لأفكار التنوير، حتى وإن كانت لا تزال تُقاوم في المؤسسات الرسمية. كما أصبح المعلم أكثر استقلالية في بعض المناطق، ولم يعد مجرد وكيل للكنيسة، بل فرداً يمتلك سلطة تعليمية أوسع. وهكذا، مع نهاية الفترة الستيوارتية، يمكن القول إن الدين ظل قوة محورية في التعليم، لكنه لم يعد يحتكره، بل أصبح أحد المؤثرات العديدة فيه. وقد أفضت هذه النقلة إلى بناء نظام تعليمي أكثر تنوعاً، ممهّداً الطريق أمام الإصلاحات الكبرى في القرن الثامن عشر⁽⁴⁾.

المبحث الثاني: المؤسسات التعليمية في عهد آل ستيوارت

المطلب الأول: المدارس الرسمية والكنسية في إنجلترا الستيوارتية

مثّلت المدارس الرسمية والكنسية النواة المركزية لنظام التعليم في إنجلترا خلال الحقبة الستيوارتية (1603-1714)، فقد كانت هذه المدارس مدعومة إما من الدولة، أو من الكنيسة الأنجليكانية، أو

¹ Margaret C. Jacob, Op. Cit, p.41.

² ويلسون، روبرت (1990). الكنيسة والتعليم في إنجلترا الحديثة. لندن: دار بلاكويل، ص222.

³ Robert H. Wilson, Op. Cit, p.20.

⁴ عبد الدائم، عبد الله. (1973). من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين (ط 6). بيروت: دار العلم للملايين.

من النبلاء والأوقاف الخيرية. تركزت هذه المؤسسات التعليمية أساسًا في المدن، لكنها انتشرت أيضًا في القرى الكبرى، وكانت تتبع هيكلًا هرميًا وتعليميًا محددًا يخدم الأهداف الدينية والسياسية للسلطة الحاكمة.

تنقسم هذه المدارس إلى نوعين رئيسيين⁽¹⁾:

- المدارس النحوية (Grammar Schools): وكانت تُدرّس اللغة اللاتينية والقواعد والبلاغة والمنطق، بهدف إعداد الطلاب للجامعات، لا سيما جامعتي أوكسفورد وكامبريدج.
- المدارس الابتدائية (Petty Schools): وتركز على القراءة والكتابة والحساب البسيط، وغالبًا ما كانت بإشراف معلم واحد داخل الكنيسة أو بجوارها.

من خصائص المدارس الرسمية في تلك الفترة أنها كانت تعتمد في تمويلها على الهبات الملكية أو الأوقاف الخيرية، خصوصًا من الطبقة الأرستقراطية. وغالبًا ما كان يتم التبرع بقطعة أرض أو مصدر دخل دائم، مثل تأجير أملاك، لضمان استمرار المدرسة. كما كانت مجالس أمناء محلية تُشرف على توظيف المعلمين وضبط المناهج، لكن ضمن إطار العقيدة الأنجليكانية المعتمدة. ولم تكن هذه المدارس متاحة للجميع، فقد اشترطت في كثير من الأحيان القدرة على دفع رسوم معينة ولو رمزية، مما أبقى التعليم حكرًا على الطبقات الوسطى والعليا، مع استثناءات محدودة للفقراء المميزين. كما أن اللغة اللاتينية ظلت لقرون هي محور التعليم في المدارس النحوية، مما أبقى التعليم معزولًا عن اللغة اليومية لعامة الشعب، وجعله حكرًا ثقافيًا ونخبويًا⁽²⁾.

وكان أحد السمات البارزة للمدارس الكنسية هو اندماج التعليم مع الطقوس الدينية اليومية. فقد كانت المدرسة عادة ملحقة بالكنيسة المحلية، وتُدار من قبل القس أو أحد مساعديه. وكانت الدروس تُفتح بالصلاة، وتُختم بترتيل المزامير، مع تأكيد كبير على حفظ نصوص الإنجيل وتعاليم الكنيسة الأنجليكانية. كما كانت العقوبات الجسدية جزءًا لا يتجزأ من العملية التعليمية، ويُنظر إليها على أنها وسيلة لتقويم الأخلاق والسلوك. أما من حيث المناهج، فتركزت على تعليم اللغة اللاتينية، باعتبارها لغة الإنجيل والفكر اللاهوتي، إضافة إلى مبادئ النحو والمنطق والبلاغة، وبعض الرياضيات البسيطة. وقد تباين مستوى التعليم بحسب موقع المدرسة ومدى تمويلها، فبينما كانت بعض المدارس في لندن تقدم تعليمًا متقدمًا، كانت مدارس القرى غالبًا بدائية وتفتقر إلى المعلمين المؤهلين⁽³⁾.

اعتمدت هذه المدارس على نظام "الصف الواحد متعدد المستويات"، إذ يتعلم الأطفال من مختلف الأعمار داخل فصل واحد. وغالبًا ما كان الطلاب الكبار يساعدون الأصغر سنًا، في أسلوب

¹ John Milton, Op. Cit, p.35.

² Jonathan I. Israel, Op. Cit, p.54.

³ Francis Bacon, Op. Cit, p.25.

يُعرف بالتعليم التشاركي أو التبادلي، مما ساعد في تعويض نقص عدد المعلمين، لكنه أثر على جودة التعليم.

من جهة أخرى، يُلاحظ أن المدارس الرسمية لعبت دورًا سياسيًا أيضًا، إذ كان تعيين المعلمين يتم بموافقة سلطات الكنيسة والبلدية. ولم يكن مقبولاً أن يُعيّن شخص ذو توجه بيوريتاني أو كاثوليكي في منصب تعليمي رسمي دون الموافقة، حتى وإن كانت كفاءته عالية. ولهذا السبب، أصبحت المدارس أداة للهيمنة الدينية والسياسية، أكثر من كونها أداة للمعرفة⁽¹⁾.

كان للمدارس الكنسية أثر بعيد المدى على تشكيل الوعي الديني والسياسي للأطفال في إنجلترا. فقد تلقى الطلاب في هذه المدارس تعليمًا موجهًا يُكرّس الولاء للملك والكنيسة الرسمية، ويحذر من المذاهب الأخرى، خاصة الكاثوليكية، التي كانت تُصوّر كتهديد داخلي وخارجي. بل إن بعض المدارس كانت تُدرّس نصوصًا مناهضة للبابوية، ضمن دروس التاريخ أو الدين. كما أُدرجت في بعض المدارس أجزاء من القوانين الملكية والنظام الاجتماعي الإنجليزي، مما جعل المدرسة مكانًا لتنشئة "المواطن الصالح" وفقًا للمعايير الرسمية. وقد تطورت هذه الفكرة لاحقًا لتصبح أساسًا لفلسفة التعليم في القرن الثامن عشر، لكنها بدأت في ظل آل ستيوارت كتقنية للضبط الاجتماعي⁽²⁾.

وفي المقابل، لم تخلُ الساحة من مدارس مستقلة، أسسها أفراد أو طوائف دينية منشقة، مثل البيوريتان والميثوديين. ورغم التضييق الذي واجهوه، فإنهم استطاعوا إنشاء مدارس تتميز بمناهج أكثر بساطة، وتركز على الأخلاق المسيحية العملية، والقراءة المباشرة للكتاب المقدس. كما سمحت بعض هذه المدارس بتعليم البنات، في إطار محدود، على عكس المدارس الرسمية التي تجاهلت تعليم الإناث تمامًا. وقد واجهت هذه المدارس المستقلة قمعًا شديدًا من السلطات، لا سيما بعد صدور قانون الاتساق (1662)، الذي فرض الطاعة المطلقة للكنيسة الأنجليكانية، وجعل كل من يُدرّس خارج سلطتها عرضة للملاحقة القانونية. لكن هذه المدارس مثّلت بذورًا مبكرة لحركة الإصلاح التربوي التي ستنتعش في القرن التالي⁽³⁾.

ومع نهاية الحقبة الستيوارتية، تحديداً بعد الثورة المجيدة (1688)، بدأت تظهر بعض التغييرات في المدارس الرسمية. فقد فرض البرلمان قوانين جديدة تتيح قدرًا محدودًا من التسامح الديني، ما سمح لبعض المدارس غير الأنجليكانية بالعمل ضمن إطار قانوني، وإن كان خاضعًا للرقابة. كما ظهرت مبادرات جديدة لإنشاء مدارس خيرية للفقراء، بتمويل من التجار أو المحسنين، بعيدًا عن الإشراف الكنسي المباشر. لكن رغم هذه التطورات، فإن الطابع الكنسي المحافظ بقي غالبًا على

¹ Richard G. Boyer, Op. Cit, p28.

² هيوستن، ديفيد. (يونيو، 1992). التعليم والطبقات في إنجلترا 1600-1800. كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، ص195.

³ Ellen Jordan, Op. Cit, p81.

التعليم الرسمي، ولم تتغير المناهج إلا في حالات نادرة. كما بقيت الجامعات تفرض اختبارات دينية على الطلاب والمعلمين، مما جعل التعليم العالي حكرًا على من يعتنق المذهب الرسمي⁽¹⁾.

تُظهر هذه الوقائع أن المدارس الرسمية والكنسية في عصر آل ستيوارت لم تكن مؤسسات تعليمية بالمعنى الحديث، بل كانت أدوات لإعادة إنتاج النظام الاجتماعي والديني القائم. وقد نجحت في تدريب أجيال على الطاعة والانضباط، لكنها فشلت في إنتاج فكر نقدي أو مستقل. ومع ذلك، فإن التعدد المحدود في أنماط التعليم، خصوصًا بعد 1688، مهد الطريق لنشوء نظام تعليمي أكثر تنوعًا في القرون التالية⁽²⁾.

المطلب الثاني: الجامعات والتعليم العالي في إنجلترا الستيوارتية

لم تكن الجامعات مجرد مؤسسات أكاديمية تهدف إلى إنتاج المعرفة في زمن آل ستيوارت، بل كانت في المقام الأول مؤسسات دينية وتربوية وسياسية وأيديولوجية، تشرف عليها الدولة والكنيسة الأنجليكانية. وقد اقتصر التعليم العالي على جامعتين فقط في إنجلترا، هما: جامعة أوكسفورد وجامعة كامبريدج، وكانتا تعملان تحت إشراف مباشر من التاج والكنيسة. لقد لعبت الجامعتان دورًا مركزيًا في تكوين النخبة السياسية والدينية، حيث كانتا مصدر إعداد القساوسة والقضاة والإداريين والمستشارين الملكيين. وقد فرضت الجامعتان على الطلبة والهيئة التدريسية إعلان ولائهم للعقيدة الأنجليكانية، ورفض المذاهب الأخرى، خصوصًا الكاثوليكية والبيوريتانية. وكان الطلاب يُمنعون من الالتحاق أو التخرج ما لم يؤدوا قسم الولاء الديني والسياسي للملك والكنيسة⁽³⁾.

أما من حيث المناهج، فقد سيطرت اللغة اللاتينية على التعليم الجامعي، وكانت المواد تشتمل على النحو، المنطق، الفلسفة، البلاغة، الرياضيات، واللاهوت وكان التعليم يتم بأسلوب تقليدي يعتمد على المحاضرات، والمناظرات، والحفظ، مع التركيز على تفاسير الآباء الكنسيين، وكتابات أرسطو³. وقد أدى هذا الجمود إلى حالة من الركود المعرفي، وانتقادات لاحقة من فلاسفة وعلماء مثل فرانسيس بيكون الذي طالب بإدخال المنهج العلمي والتجريبي ورغم ذلك، حافظت الجامعات على مكانتها باعتبارها بوابة الطبقات الأرستقراطية نحو السلطة. وكان الالتحاق بها مقصورًا على الذكور من الطبقات الثرية أو من أبناء رجال الدين، بينما حُرمت النساء كليًا من التعليم الجامعي، وحُرّم الفقراء ما لم يحصلوا على دعم رعوي أو منحة تعليمية⁽⁴⁾.

¹ Christopher Hill, Op. Cit, p.48.

² عبد الدائم، ص 364.

³ David Houston, Op. Cit, p.25.

⁴ ويلسون، ص 154.

تميزت الحياة الجامعية في تلك الفترة بالتنظيم الصارم والانضباط الديني فقد فرضت على الطلاب والهيئة التدريسية قوانين سلوكية دقيقة، تضبط الملبس، واللغة، والممارسات اليومية، وحتى العلاقات الشخصية داخل الكليات وكانت الحياة اليومية تبدأ بالصلاة والقداس، وتتخللها دروس في اللاهوت والأخلاق، إضافة إلى الرقابة الكنسية الشديدة على جميع الأنشطة كما أُجبر الطلاب على حضور الصلوات العامة، والمشاركة في الطقوس الدينية التي تؤكد الولاء للنظام الملكي والكنسي، وكانت أي مخالفة لهذه القواعد تُعاقب بالطرد أو الحبس الأكاديمي وهكذا أصبحت الجامعة أداة لتشكيل شخصية "الإنجليزي النموذجي": المطيع، المسيحي الأنجليكاني، والخادم للنظام الاجتماعي⁽¹⁾.

تبعاً لذلك، كانت الدراسات في القانون الكنسي والقانون المدني ذات أهمية كبيرة، خاصة لمن يسعون لشغل وظائف عامة أو كنسية وقد أُتيح لطلاب كليات القانون في أوكسفورد وكامبريدج تعلم مبادئ التشريع الإنجليزي، لكن دوماً من منظور ديني محافظ. أما العلوم الطبيعية فلم تحظَ بمكانة تُذكر، وكانت تُدرس أحياناً ضمن الفلسفة الطبيعية وليس بوصفها علماً تجريبياً مستقلاً ورغم وجود بعض الحلقات البحثية الخاصة، فإن هذه المبادرات كانت محدودة ومُراقبة بشدة. وقد بدأ الاهتمام بالعلوم التجريبية يتزايد في أواخر القرن السابع عشر، خصوصاً بعد تأسيس الجمعية الملكية للعلوم (Royal Society) سنة 1660، والتي ضمت علماء مثل روبرت بويل ونيوتن، لكنها بقيت منفصلة عن المنظومة الجامعية التقليدية⁽²⁾.

لم تكن الجامعة مجرد مؤسسة أكاديمية بل كانت أيضاً ساحة للصراع الأيديولوجي. فقد واجهت الجامعات ضغوطاً شديدة في فترات التوتر السياسي، مثل الحرب الأهلية (1642-1651)، حيث انقسمت الهيئة التدريسية بين مؤيدين للملك ومناصرين للبرلمان. وقد قام نظام كرومويل الجمهوري بتطهير الجامعات من الأكاديميين الموالين للتاج، واستبدلهم بآخرين من أنصار البيوريتانية خلال هذه الفترة، شهدت بعض الكليات تحولات نوعية في البرامج التعليمية، فتم إدخال النصوص البيوريتانية في مناهج الأخلاق، وأعيد النظر في أساليب التعليم لتكون أقرب إلى المنطق والعقل، بعيداً عن الأمور الدينية كما حاول البيوريتان تخفيف قبضة الكنيسة على التعليم العالي، وتحويله إلى منصة لنشر الإصلاح الديني والاجتماعي لكن هذه الإصلاحات لم تدم طويلاً، فمع عودة الملكية في 1660، أعيدت السيطرة الكنسية على الجامعات، وطُرد الأساتذة الذين تعاونوا مع النظام الجمهوري، وأُعيد فرض العقيدة الأنجليكانية في كل جوانب التعليم. وهكذا عادت الجامعات إلى كونها معاقل للمذهب الرسمي، والولاء السياسي، وإعادة إنتاج النخبة الحاكمة⁽³⁾.

¹ Richard Aldrich, Op. Cit, p.28.

² John Milton, Op. Cit, p.41.

³ Francis Bacon, Op. Cit, p.33.

لقد أدت هذه التقلبات السياسية إلى جعل التعليم العالي أداة للصراع السياسي، يُستخدم من قبل الأطراف المختلفة لفرض رؤيتها على المجتمع. كما زادت الفجوة بين التعليم الجامعي والتعليم الشعبي، إذ لم تقدم الجامعات أي مبادرات لتعليم الطبقات الفقيرة، أو لتوسيع دائرة الانتساب إليها، على الرغم من القيود السياسية والدينية، فقد بدأت تظهر في أواخر القرن السابع عشر بعض الدعوات الإصلاحية داخل الأوساط الجامعية. وكان أبرزها تلك التي طرحها المفكر جون لوك، الذي دعا إلى إصلاح التعليم بحيث يُركز على العقل والتجربة بدلاً من الحفظ والتلقين، ورفض احتكار الكنيسة للتعليم كما دعا لوك إلى تعليم الفتيات، وإن في حدود ضيقة، وهو ما مثل نقلة فكرية في هذا الزمن⁽¹⁾

كما ساهمت الحركة العلمية الناشئة، لا سيما الجمعية الملكية، في نقد المناهج الجامعية التقليدية. وقد نشر بعض أعضائها أوراقاً تنتقد استمرار تدريس الفلسفة الأرسطية القديمة، والمبالغة في الدراسات اللاهوتية على حساب العلوم التطبيقية. وبدأت تظهر أفكار حول "جامعة جديدة" تقوم على مبدأ البحث العلمي، لكن هذه الأفكار بقيت نظرية حتى منتصف القرن التالي ورغم هذه المحاولات، فإن الجامعات بقيت حتى نهاية عهد آل ستيوارت مؤسسات محافظة، تقليدية، خاضعة للكنيسة، ولا تسمح بالتجريب أو التفكير الحر إلا في نطاق ضيق. فقد ظل الطالب الجامعي مطالباً بالولاء للملك، والتمسك بالعقيدة الرسمية، والامتثال للتقاليد الصارمة، وإلا فقد مقعده الأكاديمي، وربما مستقبله المهني⁽²⁾ بهذا، يمكن القول إن التعليم في زمن آل ستيوارت كان امتداداً للنظام الاجتماعي والديني المحافظ، وقد ساهم في تشكيل نخبة حاكمة تُعيد إنتاج النظام القائم لكنه في الوقت ذاته، شهد إرهابات مبكرة لحركة التنوير والإصلاح العلمي التي ستغير وجه التعليم في القرن الثامن عشر.

رغم هيمنة الكنيسة والدولة على مؤسسات التعليم الرسمية في عصر آل ستيوارت، فإن التعليم لم يقتصر على الجامعات والمدارس النحوية، بل ظهر إلى جانبها نظام تعليمي غير رسمي نشأ نتيجة الضغوط الاجتماعية والسياسية والدينية التي دفعت شرائح من المجتمع للبحث عن بدائل. وقد تشكلت هذه البدائل عبر المدارس الخاصة، والمبادرات الفردية، والدروس المنزلية، بالإضافة إلى المدارس الدينية غير الرسمية التي أنشأها المنشقون عن الكنيسة الأنجليكانية⁽³⁾

كانت المدارس الخاصة خلال هذه الحقبة تنشأ غالباً بتمويل من الأثرياء أو من الجماعات الدينية المعارضة، وتقدم تعليماً مختلفاً عن التعليم الرسمي في المناهج والأسلوب إذ لم يكن الغرض منها تاهيل الطلبة للجامعات، بل لإكسابهم مهارات عملية وأخلاقية ودينية تتوافق مع رؤى مجتمعاتهم

¹ Margaret C. Jacob, Op. Cit, p.29.

² هيوستن، ص 200.

³ Ellen Jordan, Op. Cit, p49.

المحلية ومن أبرز خصائص هذه المدارس حرية المناهج، وابتعادها عن اللغة اللاتينية التي كانت تسيطر على المدارس النحوية، واعتمادها على اللغة الإنجليزية في تدريس القراءة والكتابة والحساب، إضافة إلى أجزاء من الكتاب المقدس كما أن هذه المدارس كانت أكثر قرباً من أبناء الطبقة المتوسطة، وخاصة أبناء التجار والحرفيين الذين وجدوا فيها وسيلة بديلة لتعليم أولادهم دون الاضطرار إلى إرسالهم لمدارس خاضعة للكنيسة، لم تكن هذه المدارس تحظى باعتراف رسمي، بل كانت تُعتبر مخالفة للقانون في بعض الفترات، وقد أدى ذلك إلى تعرضها لحملة قمع من قبل السلطات، إذ أُغلقت العديد منها، وألقي القبض على المعلمين، خاصة بعد صدور قانون "الاتفاق" سنة 1662 الذي منع التعليم إلا بإذن الكنيسة⁽¹⁾.

إلى جانب المدارس الخاصة، شكّلت الدروس المنزلية شكلاً مهماً من أشكال التعليم غير الرسمي، خاصة بين الطبقات الأرستقراطية والعائلات الثرية التي كانت ترغب في تعليم أولادها وكان يتم استقدام معلم خاص يُقيم في منزل الأسرة لتعليم الأطفال اللغات، والتاريخ، واللاهوت، والعلوم الأساسية، بما يتماشى مع رؤية العائلة السياسية والدينية وكان لهذا النوع من التعليم مزايا كثيرة، أهمها الخصوصية، وتحرر المعلم من الرقابة الرسمية، وإمكانية تصميم المنهج بما يتناسب مع توجه الأسرة إذ كانت الأسر الأرستقراطية التي لا تؤمن بتعليم الإناث في المدارس تسمح لهن بتلقي دروس منزلية في القراءة والخياطة والأخلاق الدينية وقد ساعد هذا النوع من التعليم في بروز نساء مثقفات، مثل ماري أستل، التي دعت لاحقاً لتعليم النساء رسمياً⁽²⁾.

فقد اتسم التعليم غير الرسمي في العصر الستيوارتي بقدر كبير من التنوع والتجريب ففي الوقت الذي بقيت فيه الجامعات والمدارس الرسمية جامدة في مناهجها، كانت المدارس الخاصة والدروس المنزلية أكثر انفتاحاً على العلوم الإنسانية واللغات الحديثة والرياضيات، بل وحتى بعض مبادئ العلوم الطبيعية والتاريخ الأوروبي المعاصر وقد ساعد هذا الانفتاح في إدخال بعض المفاهيم التنويرية إلى إنجلترا قبل أن تتبناها المؤسسات الرسمية، ولعل إحدى أبرز مميزات التعليم غير الرسمي أيضاً أنه كان أقل تقييداً بالعقيدة، إذ أتاح لأبناء الطوائف الأخرى أن يتلقوا تعليماً دون إجبارهم على إعلان الولاء للكنيسة الأنجليكانية. ومع أن هذا الأمر تسبب في ملاحقة بعض المدارس والمعلمين، إلا أنه مهّد الطريق لفكرة التسامح الديني في التعليم، والتي ستناقش رسمياً بعد الثورة المجيدة⁽³⁾.

كما أسهم هذا التعليم في توسيع الفئة المتعلمة، إذ شمل أبناء الطبقة الوسطى والتجارية التي لم تكن قادرة دائماً على دفع تكاليف التعليم الجامعي أو إرسال أبنائها إلى أوكسفورد أو كامبريدج وقد

¹ David Houston, Op. Cit, p.29.

² إبراهيم، محمد منير. (1997). التعليم في أمريكا: دراسة تحليلية. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص154.

³ Ellen Jordan, Op. Cit, p41.

شكلت هذه الفئة لاحقاً قاعدة اجتماعية صلبة طالبت بإصلاحات سياسية واقتصادية وثقافية، ما يعكس العلاقة بين التعليم غير الرسمي والتغيير المجتمعي، ورغم أن الحكومة لم تكن تعترف بهذه المدارس رسمياً، إلا أنها اضطرت إلى التفاوضي عنها في بعض الأحيان، خاصة في المناطق التي لم تكن فيها مدارس رسمية وقد ساعد هذا التوسع في التعليم غير الرسمي على تراجع فكرة احتكار المعرفة، وإعادة توزيعها بين فئات أوسع من المجتمع الإنجليزي⁽¹⁾.

في تقييم شامل للتعليم غير الرسمي والمدارس الخاصة خلال الحقبة الستيوارتيّة، يتبين أنها كانت تمثل نموذجاً بديلاً وفعالاً لنقل المعرفة، رغم غياب الاعتراف الرسمي فقد مكنت هذه المؤسسات التعليمية الناشئة الأفراد من تحدي السلطة التعليمية الرسمية، وممارسة حرية فكرية نسبية، حتى لو كانت محدودة ومحفوفة بالمخاطر ويُحسب لهذه المدارس أيضاً أنها فتحت الباب لتعليم الفتيات، ولو في إطار محافظ، ومهدت الطريق لمطالبات لاحقة بحق المرأة في التعلم كما أن بعضها اهتم بتعليم الأطفال الفقراء، وخصوصاً أبناء الحرفيين، في وقت كانت المدارس الرسمية تتجاهلهم تماماً، وعلى الرغم من افتقار هذه المدارس للموارد، والمعلمين المحترفين، والمناهج المنظمة، فإنها شكّلت نواة لتوسيع مفهوم التعليم ليشمل ما هو أبعد من الدين واللغة اللاتينية فقد بدأت تبرز فيها مفاهيم التفكير النقدي، والملاحظة، والتجريب، وهي المفاهيم التي ستشكل لاحقاً جوهر الفكر التنويري⁽²⁾.

وهكذا، فإن التعليم غير الرسمي والمدارس الخاصة في العصر الستيوارتي لم تكن مجرد ظاهرة هامشية، بل كانت قوة تغيير فاعلة، ساهمت في خلخلة البنية التقليدية للتعليم، وأنتجت جيلاً قادراً على تجاوز الأطر الرسمية، والانخراط في حركة المعرفة والفكر المستقل.

المبحث الثالث: التعليم والسياسة والدين

المطلب الأول: التعليم كأداة للسلطة السياسية والدينية

اتسم العصر الستيوارتي في إنجلترا (1603-1714) بتشابك شديد بين الدين والسياسة والتعليم، حتى باتت المدرسة والجامعة أدوات مباشرة بيد الدولة والكنيسة لتثبيت السلطة وترسيخ النظام الاجتماعي القائم وقد وظّفت السلطة السياسية والتعليم منذ بداية عهد جيمس الأول لتشكيل هوية دينية موحدة، وفرض ولاء مطلق للتاج، عبر منظومة تربوية موجهة بدقة شديدة، ففي أولى سنوات الحكم الستيوارتي، تم اعتماد المدارس الرسمية والكنسية كمنابر لصياغة "الوعي العام، من خلال تعليم العقيدة الأنجليكانية فقط، واستبعاد كل المخالفين لها لم يكن مسموحاً لمدرس أو طالب أو حتى ولي أمر أن يظهر ولاءه لأي تيار ديني أو سياسي معارض، وإلا تعرّض للمحاسبة أو الطرد من

¹ Christopher Hill, Op. Cit, p.51.

² إبراهيم، ص245.

المؤسسة التعليمية هذا الدمج بين التعليم والدين والسياسة جعل من المدرسة قلعة للسلطة لا ساحة للتعليم الحر⁽¹⁾.

عكست المناهج التعليمية هذا التوجه بوضوح، إذ تضمنت نصوصاً تمجد الملك وتجرّم الثورة أو العصيان، وتُقدّم الطاعة بوصفها فضيلة أخلاقية عليا فكان يُلقن الأطفال يوميًا أن الملك هو الممثل الشرعي لله على الأرض، وأن من يعارضه يعارض مشيئة الله وقد عُرفت هذه الفلسفة التربوية باسم "تعليم الطاعة"، وكانت سائدة حتى في أبسط المدارس الابتدائية، وتُبرز الوثائق التاريخية أن السلطات السياسية كانت تتدخل مباشرة في تعيين مديري المدارس وأساتذة الجامعات، بل وتُشرف على مضمون الدروس الدينية وقد منعت الحكومة تدريس أفكار الإصلاحيين أو الفلاسفة العقلانيين، خشية أن تزعزع سلطتها، كما كان الحال مع كتابات جون ميلتون أو فرانسيس بيكون في بعض الفترات وهكذا، غدا التعليم في كثير من الأحيان أداة قمع ثقافي قبل أن يكون وسيلة لبناء المعرفة⁽²⁾.

امتد تأثير السلطة السياسية على التعليم أيضًا إلى ما يُعرف بـ"الرقابة التربوية"، وهي منظومة من الضوابط المفروضة على الكتب، والمدرسين، والمناهج، بل وحتى على المطبوعات الخاصة بالطلبة فكل كتاب مدرسي كان يجب أن يُراجع من قبل الكنيسة، ويُمنع استخدام أي نصوص لا تروج للعقيدة الرسمية وكان هذا النظام يطبق بصرامة في كل المراحل التعليمية كما فرضت الحكومة في أكثر من مناسبة قوانين تُلزم الطلبة والمعلمين بتوقيع وثائق ولاء، تُجدد سنويًا، يتم التأكد فيها من عدم تعاطفهم مع أي حركة معارضة كالكاثوليك أو البيوريتان وكان هذا الولاء لا يشمل النظام الملكي فقط، بل أيضًا لاهوت الكنيسة الأنجليكانية، مما جعل التعليم أداة لفرض "الإجماع الوطني القسري" على حساب التنوع الفكري والديني وفي هذا السياق، لعب التعليم دورًا حاسمًا في ما يُعرف بـ"الهندسة الاجتماعية"، إذ سعت الدولة إلى إنتاج جيل من المواطنين يتطابق مع المعايير الأخلاقية والدينية والسياسية التي ترسمها السلطة. فالطفل لا يُعلم ليكون مفكرًا حرًا، بل ليكون تابعًا صالحًا، مُطيعًا، لا يتحدى النظام⁽³⁾.

وخلال الحرب الأهلية (1642-1651) وما تلاها من تغيرات سياسية، ظهر لأول مرة خلخلة نسبية في هذه العلاقة الوثيقة بين السلطة والتعليم، إذ استغل أنصار البرلمان البيوريتانيون مؤسسات التعليم لنشر عقيدتهم الخاصة. فأنشؤوا مدارس مستقلة، وغيروا بعض المناهج، وأعادوا تعريف الطاعة بوصفها لله وليس للملك، مما مثّل تحديًا جذريًا للفكر السياسي الديني الملكي وخلال حكم كرومويل، تم تقليص تدخل الكنيسة الرسمية في التعليم، وسمح لبعض المعلمين بنشر الفكر الإصلاحي الحر بل وظهر مفهوم "التعليم الإصلاحي"، الذي يقوم على العقل والنقاش والإنجيل بلغة الشعب، بدلًا من

¹ David Houston, Op. Cit, p.39.

² John Milton, Op. Cit, p.47.

³ إيراهيم، ص257.

اللاتينية وقد استفاد من هذه المرحلة آلاف الطلبة من أبناء الطبقة الوسطى، الذين وجدوا تعليمًا مفتوحًا لأول مرة "، إلا أن هذه الحرية لم تستمر طويلًا، فمع عودة الملكية سنة 1660، أعيد فرض السيطرة الكنسية على التعليم بقوة، وطُرد المعلمون المعارضون، وأُغلقت المدارس الحرة، وعادت النصوص الأنجليكانية إلى المناهج. وقد وصف أحد المؤرخين هذه المرحلة بأنها "عودة القفص الحديدي" على التعليم، حيث استُعيدت السلطة المطلقة للكنيسة والدولة على المدرسة⁽¹⁾.

من هنا يمكن القول إن التعليم خلال عهد آل ستيوارت كان ساحة لصراع دائم بين السلطة والحرية، بين التلقين والبحث، بين الدين والسياسة من جهة، والعقل والتنوير من جهة أخرى. وقد هيمنت السلطة في معظم فترات هذا العهد، لكنها لم تستطع القضاء على النزعات الإصلاحية، التي ستثمر لاحقًا في العصر التنويري.

المطلب الثاني: الجدل حول حرية الفكر والإصلاح التعليمي في إنجلترا

شهدت الحقبة الستيوارتية تصاعدًا متدرجًا في الجدل الفكري حول حرية التعليم، وضرورة إصلاح النظام التعليمي التقليدي الذي كانت تهيمن عليه الكنيسة والدولة فقد ظهرت في النصف الثاني من القرن السابع عشر أصوات فكرية ونقدية قوية تطالب بإعادة النظر في دور التعليم ومناهجه، وعلى رأسها أصوات التنويريين الأوائل مثل فرانسيس بيكون وجون ميلتون، ثم لاحقًا جون لوك كانت الدعوات الإصلاحية تتركز حول ثلاث قضايا رئيسية: أولاً، فك ارتباط التعليم بالعقيدة الرسمية؛ ثانياً، إصلاح المناهج القائمة على الحفظ والتكرار؛ وثالثاً، فتح أبواب التعليم لأوسع فئات المجتمع، لا سيما الفقراء والنساء. وقد رفض هؤلاء المفكرون فكرة أن التعليم يجب أن يكون أداة لتكريس الطاعة، وأكدوا أن هدفه الأساسي هو بناء العقل، وتنمية القدرة على التمييز النقدي وفي هذا السياق، كتب ميلتون رسالته الشهيرة "من أجل إصلاح التعليم" (1644)، والتي هاجم فيها الأساليب التعليمية القائمة، واعتبر أن المدرسة لم تعد تصنع مفكرين، بل مجرد "منفذين تعليميين" للسلطة. ودعا إلى تعليم يجمع بين الفضيلة والمعرفة، يقوم على القراءة الحرة، والحوار، والانفتاح على العلوم والفنون وقد أثارت أفكار ميلتون ضجة كبرى، لكنها بقيت محصورة في أوساط المثقفين بسبب الرقابة الكنسية⁽²⁾.

لم تقتصر المطالب الإصلاحية على الفلاسفة، بل شملت أيضاً شريحة من القساوسة المعتدلين، وبعض المعلمين الذين وجدوا أن النظام التعليمي القائم يحد الإبداع، ويحول دون تطور المعرفة وقد بدأت تظهر في بعض المدارس محاولات لتطبيق هذه الأفكار، مثل إدخال تدريس المواد العلمية، وتبسيط اللغة، وتشجيع النقاش في الفصول الدراسية، بدلاً من الاقتصار على التلقين ورغم

¹ Robert H. Wilson, Op. Cit, p.35.

² Francis Bacon, Op. Cit, p.25.

ذلك، كانت هذه المحاولات تواجه مقاومة شديدة من السلطات، لاسيما في الفترة التي تلت عودة الملكية (1660)، إذ أعادت الحكومة فرض سيطرة الكنيسة الأنجليكانية على المدارس، وأغلقت العديد من المبادرات التعليمية الحرة وقد سن البرلمان قوانين تُجبر المعلمين على الالتزام بالمناهج الرسمية، وتحظر تدريس أي كتاب أو فكر خارج عن العقيدة الرسمي⁽¹⁾.

ومع مرور الوقت، بدأت أفكار الإصلاح تتسرب تدريجياً إلى الخطاب العام فقد أصبح من المعتاد أن يكتب المفكرون في الصحف والمجلات حول أهمية حرية الفكر في التعليم، وضرورة تحديث المناهج. كما بدأ بعض أعضاء البرلمان بالدعوة إلى تعديل القوانين التي تقيد حرية المعلم، وتمنع غير الأنجليكان من ممارسة التعليم وفي هذا السياق، برزت أفكار جون لوك كأحد أهم الأصوات الداعية لإصلاح التعليم جذرياً. ففي كتابه "بعض الأفكار حول التربية"، هاجم لوك فكرة العقاب البدني، ودعا إلى التعامل مع الطفل باعتباره كائنًا عاقلًا يمكن توجيهه بالحوار والقوة لا بالخوف كما طالب بإدخال اللغات الحديثة، والعلوم، والأعمال اليدوية إلى المناهج، وربط التعليم بالحياة العملية وقد أثرت هذه الأفكار في قطاعات واسعة من الطبقة المتوسطة، التي بدأت تطالب بتعليم مختلف لأبنائها، لا يركز على اللاهوت فحسب، بل يُعدهم للحياة والعمل. وهكذا نشأ ضغط اجتماعي حقيقي باتجاه تحديث التعليم، لم تقوَ الدولة على تجاهله في نهاية القرن. إلى جانب ذلك، بدأت الجمعيات العلمية مثل الجمعية الملكية في التأثير غير المباشر على التعليم، من خلال تشجيع المعلمين والطلاب على استخدام المنهج التجريبي، والتفكير النقدي، والملاحظة. وقد أنشئت مجلات علمية تُدرّس خارج الجامعات، ما شكل بيئة معرفية موازية ساهمت في خلخلة احتكار الكنيسة للتعليم⁽²⁾.

وقد صدرت قوانين لاحقة تسمح للطوائف البروتستانتية غير الأنجليكانية بفتح مدارسها، شرط عدم الترويج للكاتوليكية، ما فتح الباب أمام تنوع تربوي نسبي، وإن كان لا يزال منضبطاً سياسياً. ومع ذلك، شكّل هذا الاعتراف أول اختراق رسمي لاحتكار الكنيسة للتعليم، ومهد الطريق أمام إصلاحات أوسع في القرن الثامن عشر وإنّ مراجعة الجدل الإصلاحية خلال الحقبة الستوارتية تُظهر أن التعليم لم يكن مجرد قضية مدرسية أو جامعية، بل كان جزءاً من معركة كبرى حول حرية الإنسان، وحقه في التفكير والتعلم دون وصاية. وقد نجح الإصلاحيون، رغم القيود، في زعزعة النموذج التقليدي، وإطلاق شرارة التنوير في إنجلترا هكذا، كان الجدل حول حرية الفكر في التعليم الستوارتي بداية لمعركة طويلة ستستمر لاحقاً في العصر الجورجي، مع بروز مفكرين أكثر جرأة،

¹ Richard G. Boyer, Op. Cit, p30 .

² Margaret C. Jacob, Op. Cit, p.45.

وتطور حركة الإصلاح التعليمي. وبذلك، يصبح التعليم في هذا العصر ليس فقط مرآة للسلطة، بل ميداناً للمقاومة والفكر والتحول الاجتماعي⁽¹⁾.

المطلب الثالث: دور التعليم في تشكيل الهوية الثقافية والسياسية في إنجلترا

لم يكن التعليم في العصر الستيوارتي مجرد وسيلة معرفية أو أداة لنقل المهارات الأكاديمية، بل كان أداة مركزية في تشكيل الهوية الثقافية والسياسية للمجتمع الإنجليزي فقد أسهم النظام التعليمي الموجه، سواء في المدارس الرسمية أو الدروس المنزلية أو التعليم غير الرسمي، في ترسيخ مفاهيم محددة عن الانتماء، والدين، والسلطة، والانضباط، واللغة، وهي جميعها مكونات أساسية لما يُعرف اليوم بالهوية الوطنية لقد استُخدم التعليم منذ بداية عهد جيمس الأول كأداة لتوحيد المجتمع تحت مظلة الدولة والكنيسة الأنجليكانية، وذلك من خلال فرض مناهج موحدة، وتدريب نصوص دينية وسياسية تُعزز من صورة الملك وهكذا، تم تأطير هوية الطالب الثقافية والسياسية من أول يوم في المدرسة وكانت إحدى المظاهر الواضحة لهذا التشكيل اللغة فقد حافظ النظام التعليمي على اللغة اللاتينية كلغة تعليمية رئيسية في المدارس العليا والجامعات، وهو ما عمق الفصل بين "النخبة المتعلمة" وباقي المجتمع بينما كانت المدارس الابتدائية تُركّز على اللغة الإنجليزية الممزوجة بالنصوص الدينية، ما أضفى على اللغة طابعاً دينياً ورسمياً وقد أنتج هذا الانقسام اللغوي "هويتين ثقافيتين" داخل المجتمع: الأولى، هوية أرستقراطية متعلمة ترتبط بالمؤسسات العليا للدولة؛ والثانية، هوية دينية - شعبية تشكّلت في المدارس الدينية والريفية. وهكذا، ساعد التعليم على رسم حدود ثقافية غير مرئية داخل المجتمع نفسه، تم بموجبها تمييز الطبقات، وتحديد من يملك حق الخطاب العام، ومن يُمنع منه⁽²⁾.

ارتبطت الهوية السياسية للطالب في العصر الستيوارتي ارتباطاً وثيقاً بفكرة الولاء للمؤسسات القائمة فالنظام التعليمي حرص على غرس مفاهيم الولاء للملك، والطاعة للكنيسة، والامتثال للنظام الاجتماعي، بوصفها فضائل أخلاقية ودينية. وكان يُنظر للمعلم كوسيط بين الدولة والطالب، يضطلع بمهمة "إعادة إنتاج السلطة" من خلال المناهج، والعقاب، والانضباط اليومي على سبيل المثال، كان من الشائع في المدارس أن يُطلب من التلاميذ ترديد "صلوات الطاعة" صباحاً، وقراءة نصوص تحت على الولاء للملك، وتحذر من الفتن والانقسام. كما كانت حصص التاريخ تُستخدم لتقديم صورة مثالية عن ملوك إنجلترا، وتُخفي أو تُشوّه الأدوار التي قامت بها المعارضة أو الحركات الثورية في هذا الإطار، ساهم التعليم في خلق "مواطنة خاضعة" تعيد إنتاج نفسها عبر الأجيال. فالطالب يتعلم من عمر مبكر أن طريق النجاح يمر عبر الطاعة، وأن الخروج على النظام يعني الفشل أو العزل من

¹ ويلسون، ص201.

² David Houston, Op. Cit, p.30.

المجتمع. وقد عبّر جون لوك لاحقاً عن رفضه لهذا الأسلوب، معتبراً أن المدرسة يجب أن تربي الطفل ليكون حراً ومسؤولاً، لا عبداً مطيعاً⁽¹⁾.

هذا الأسلوب في بناء الهوية لم يقتصر على الذكور، بل انسحب أيضاً على الفتيات، وإن كان بصورة أكثر تحفظاً. ففي البيوت والمدارس الدينية، كانت الفتاة تُعلم أنها لخدمة والطاعة، وأن دورها يقتصر على البيت والكنيسة وهكذا تم تأطير الهوية الجندرية عبر التعليم، بما يخدم بنية السلطة الذكورية المحافظة رغم محاولة السلطة فرض هوية ثقافية وسياسية موحدة من خلال التعليم، إلا أن هذا المشروع واجه مقاومة فكرية ودينية في عدد من المدارس الخاصة والأكاديميات الحرة. إذ رفضت بعض الجماعات مثل البيوريتان والكويكرز الخضوع للخطاب الرسمي، وأنشأوا مؤسسات تعليمية تُعزز من مفهوم "الهوية البديلة"، التي تقوم على حرية الضمير، وحق النقد، والتنوع الديني في هذه المؤسسات، تم تعليم الطلاب أن الولاء لله أسبق من الولاء للملك، وأن العقل أداة لا غنى عنها لفهم النصوص الدينية والسياسية. وقد استخدمت هذه المدارس مناهج تُركّز على التربية الأخلاقية، والتعليم النقدي، ورفض التعصب، وهو ما أدى إلى نشوء جيل مختلف في نظرته للعالم والمجتمع⁽²⁾.

كما لعب التعليم المنزلي دوراً في الحفاظ على الهويات الثقافية المحلية. ففي الريف، كانت العائلات تُدرّس أبناءها وفقاً لتقاليدها، وغالباً ما كانت ترفض الانخراط في التعليم الرسمي الخاضع للكنيسة. وقد مكّن هذا النوع من التعليم الأسري من استمرار ثقافات محلية متنوعة، ورفض تام لاحتكار السلطة للهوية الوطنية هذا التنوع في التعليم أفضى إلى ما يمكن تسميته بـ"تعدد الهويات الثقافية"، حيث لم يعد المجتمع الإنجليزي كتلة واحدة، بل بات يتكوّن من هويات متعددة ومتنافسة، منها ما هو ديني، ومنها ما هو طبقي، ومنها ما هو سياسي. وهكذا تحول التعليم من أداة للدمج الوطني إلى ساحة للصراع الرمزي بين تصورات مختلفة عن المجتمع والسلطة والولاء ومع اقتراب نهاية القرن السابع عشر، بدأت ملامح هوية ثقافية جديدة بالتشكل، بفضل التحولات التعليمية، والمطالبات بالإصلاح، وثورة الطباعة، والانفتاح على الفكر الأوروبي. فقد صار واضحاً أن الهوية السياسية والثقافية للمجتمع الإنجليزي لم تعد تُصاغ فقط من فوق (أي من الملك والكنيسة)، بل صارت نتاج تفاعلات أوسع تشمل الفكر والعائلة والجماعات المحلية ساهم التعليم في ترسيخ فكرة "الإنجليزي الجديد": الإنسان القارئ، العاقل، المتدين بتسامح، المواطن المسؤول، الذي ينتمي لوطن أكثر منه لمذهب. وقد شكّلت هذه الهوية الجديدة بداية لظهور الهوية الوطنية الحديثة، التي تقوم على القانون، والمؤسسات، والتعليم، وليس فقط على الدم والولاء⁽³⁾.

¹ هيوستن، ص210.

² Richard Aldrich, Op. Cit, p.21.

³ Christopher Hill, Op. Cit, p.58.

يمكن القول إذاً إن التعليم في إنجلترا الستيوارية لم يكن مجرد نظام لإعداد الكهنة أو الموظفين، بل كان معملاً لبناء الهوية، تُصاغ فيه تصورات الأفراد عن أنفسهم، وعن الدولة، وقد ظلت هذه الهوية مجالاً للنقاش والتفاوض طوال العصر، وشكّلت أحد أعمدة الحداثة السياسية في بريطانيا لاحقاً.

الخاتمة:

يشكّل التعليم في عهد آل ستيوارت أحد أكثر النماذج التاريخية تعقيداً لتلاقي المعرفة بالسلطة، وتداخل الدين بالسياسة في رسم ملامح الوعي الاجتماعي والثقافي في إنجلترا الحديثة المبكرة. لقد كشف البحث، من خلال تتبع المدارس والجامعات والمناهج والسلطات القائمة عليها، أن التعليم لم يكن مجرد أداة لنقل المعرفة، بل كان في صلب المشروع السياسي والديني للدولة الستيوارية، وكان جزءاً من آلية إنتاج الطاعة وتشكيل الهوية وإعادة إنتاج النظام الاجتماعي القائم.

ففي المبحث الأول، أوضحنا كيف أن السياق السياسي والديني المضطرب، منذ بداية حكم جيمس الأول وحتى الثورة المجيدة، قد ألقى بظلاله على بنية التعليم، فأصبح خاضعاً بشكل شبه مطلق للكنيسة الأنجليكانية. تمّ تسييس المؤسسات التعليمية، واستُخدمت المناهج لغرس الولاء للملك ومعاداة الفرق المخالفة كالكاثوليك والبيوريتان، وهو ما أدى إلى تقييد حرية الفكر، وتكريس التعليم بوصفه ذراعاً رقابية للسلطة لا محرّكاً للمعرفة.

أما في المبحث الثاني، فقد تناولنا المؤسسات التعليمية القائمة من مدارس نحوية ومدارس ابتدائية إلى الجامعات، فتبين أن التعليم الرسمي كان امتيازاً طبقياً ودينيّاً، محصوراً في يد فئة محددة من المجتمع، بينما حُرمت منه الشرائح الأخرى. كما برزت المدارس غير الرسمية والدروس المنزلية كمحاولة للرد على الهيمنة الرسمية، وساهمت في نشر شكل بديل من التعليم، أكثر مرونة وانفتاحاً على الفئات الاجتماعية المختلفة.

وفي المبحث الثالث، حللنا كيف استخدمت السلطة التعليم لبناء هوية سياسية موالية، وتشكيل وعي جمعي منضبط دينياً، في مقابل حركات مقاومة فكرية دعت إلى إصلاح التعليم وتحريره من قبضة الكنيسة والدولة. كما أظهرنا أن التعليم، رغم كونه أداة للهيمنة، كان أيضاً أداة للتحرر لدى فئات معينة، وأنه مهّد الأرض للفكر التنويري في القرن الثامن عشر.

ختاماً، نستنتج أن التعليم في عصر آل ستيوارت كان مرآة تعكس الصراعات الأيديولوجية في المجتمع الإنجليزي، ووسيلة لإنتاج النظام كما هو، لكنه حمل في داخله بذور التغيير التي ستتمو لاحقاً في عصر الإصلاحات والديمقراطية. لقد كان تعليمياً يُدار من أعلى، لكنه أيقظ طموحات فكرية وثقافية في الأسفل، ستغيّر لاحقاً وجه إنجلترا الحديثة.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر العربية:

- إبراهيم، محمد منير (1997). التعليم في أمريكا: دراسة تحليلية. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- عبد الدائم، عبد الله (1973). من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين (ط6). بيروت: دار العلم للملايين.
- هيوستن، ديفيد (1992). التعليم والطبقات في إنجلترا 1600–1800. مطبعة جامعة كامبريدج.
- ويلسون، روبرت (1990). الكنيسة والتعليم في إنجلترا الحديثة. دار بلاكويل.

المصادر الأجنبية:

- Aldrich, R. (1998). Education for the nation: A documentary history of education in England. London: Routledge.
- Bacon, F. (1925). The advancement of learning. Oxford University Press. (Original work published 1925)
- Boyer, R. G. (1998). The Oxford history of the British Empire: Vol. I. The origins of empire. Oxford University Press.
- Hill, C. (1972). The world turned upside down: Radical ideas during the English revolution. London: Penguin Books.
- Israel, J. I. (2001). Radical enlightenment: Philosophy and the making of modernity 1650–1750. Oxford University Press.
- Jacob, M. C. (1997). The cultural meaning of the scientific revolution. Yale University Press.
- Jordan, E. (1995). Education and the social order in modern England. Routledge.
- Milton, J. (1953). Of education. In E. Sirluck (Ed.), Prose works. Yale University Press.
- Wilson, R. H. (1990). Church and education in early modern England. Oxford: Blackwell.